التصوير الفني في القرآن

للأستاذ سيد قطب



التصوير هو الطريقة المفضلة فى تعبير القرآن فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى، والحالة النفسية ، وعن النموذج الانسانى والطبيعة البشرية ، وعن الحادث والمشهد المنظور ، كلها سواء فى طريقة التعبير المحسوس . وإنه ليرتقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنسانى شاخص حى ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد والقصص ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل . فما يكاد يبدأ العرض حتى يخيل المستمعين نظارة ، وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول ، الذى وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر وتتجدد الحركات ، وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ومثل يضرب ، ويتخيل أنه منظر يعرض ، وحادث يقع ، وأمر يكون :

فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من الموقف ، المتساوقة مع الحوادث ؛ وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضمرة . . .

إنها الحياةُ هنا . وليست حكايةَ الحياة

فإذا ذكرنا أن الأداة التى تصور المعنى الذهنى والحالة النفسية، وتشخص النموذج الإنسانى أو الحادث المروى ؛ إنما هى ألفاظ جامدة ، لا ألوان تصور ، ولا شخوص تعبر . . . أدركنا سر الإعجاز فى تعبير القرآن .

والأمثلة على هذا الذى نقول هو القرآن كله ، حينما نعرض لغرض من الأغراض التى ذكرناها : حينما شاء أن يعبر عن معنى مجرد أو حالة نفسية أو صفة معنوية أو نموذج إنسانى ، أو قصة ماضية ، أو مشهد من مشاهد القيامة ، أو حالة من حالات النعيم والعذاب ؛ أو حينما أراد أن يضرب مثلا فى جدل ، بل حينما أراد هذا الجدل إطلاقا ، واعتمد فيه على الواقع المحسوس ، أو المتخيل المنظور .

وهذا هو الذى عنيناه حينما قلنا : « إن التصوير هو الطريقة المفضلة في تعبير القرآن » . فليس هو حلية أسلوب ، ولا فلتة تقع حيثما اتفق . إنما هو مذهب مقرر ، وخطة موحدة ، وخاصية شاملة . يُفْـتَنّ فى استخدامها على طرائق شتى ، وفى أوضاع مختلفة . ولـكنها ترجع فى النهاية إلى هذه القاعدة الـكبيرة . قاعدة التصوير .

ويجب أن نتوسع فى معنى التصوير حتى ندرك آفاق التصوير فى القرآن . فهو تصوير باللون ، وتصوير بالحركة — عن طريق التخييل — كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون فى التمثيل. وكثيراً مايشترك الوصف ، والحوار ، وجرس الـكلمات، وإيقاع الجمل ، وموسيقى السياق ، فى إبراز صورة من الصور ، تتملاها العين والأذن ، والحس والخيال ، والفـكر والوجدان . وهو تصوير حى منتزع من عالم الأحياء ، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة تقاس الأبعاد فيـه والمسافات بالمشاعر والوجدانات . فالمعانى ترسم وهى تتفاعل فى نفوس آدمية حية ، أو فى مشاهد طبيعية تخلع عليها الحياة . . . والآن نأخذ فى ضرب الأمثال

١ — يريد أن يعبر عن معنى : إن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله ولن يدخلوا الجنة إطلاقا » ، وأن دخولهم فيها مستحيل . وهذه هى الطريقة الذهنية للتعبير عن هذه المعانى المجردة ؛ ولـكن أسلوب التصوير يعرضها فى الصورة الآتية :

« إن الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها ، لا تُفتّح لهم أبوابُ السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلجَ الجملُ فى سَمِّ الخياط »

ويدعك ترسم بخيالك مشهداً لتفتُّح أبواب السماء، ومشهداً آخر لولوج الحبل الغليظ فى ثقب الإبرة الصغير . « ويختار من أسماء الحبل الغليظ اسم «الجمل» خاصة فى هذا المقام ! » . ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالمشهدين ما شاء له التأثر ، ليستقر معنى «القبول» ومعنى « الاستحالة » فى أعماق النفس ، وقد وردا إليها من طريق العين والحس — تخييلا — وعبرا إليها من منافذ شتى ، لا من منفذ الذهن وحده ، فى سرعة الذهن التجريدية .

٢ — ويريد أن يوضح حالة نفسية لتزعزع العقيدة ، حيث لا يستقر الإنسان على يقين ، ولا يحتمل كل ما يصادفه من الشدائد فى سبيل عقيدته القوية ، مبتعداً بها عن ملابسات الحياة اليومية ، مرتفعاً بها عن مقاييس الربح والخسارة . فإذا هو يرسم لها هذه الصورة المحسوسة .

« ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه . خسر الدنيا والآخرة . ذلك هو الخسران المبين »

إن الخيال ليكاد يجسم هذا « الحرف » الذى يعبد الله عليه هذا « النموذج » من الناس .. إنه يتخيل الاضطراب المادى لهم وهم يتأرجحون بين الثبات والانقلاب ، وإن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع النفسى ، بأوضح مما يؤديه وصف التزعزع لأنها تنطبع فى الحس ، وتتصل منه بالنفس

وإنى لأذكر الآن تلك الصورة التى ارتسمت فى خيالى وأنا طفل صغير ، أقرأ القرآن فى المدرسة الأولية ، حينما وصلت إلى هذه الآية . لقد خيل لى رجل على مكان مرتفع ذى حرف ؛ وهو قائم يصلى ، ورجلاه لا تثبتان على حرف المكان ، فهو يتأرجح فى كل حركة ، وهو معرض للسقوط فى أى لحظة !

ترى يبعد تصورى الآن كثيراً عن هذه الصورة الساذجة ؟ ما أظن . فالاختلاف الذى طرأ ، هو مجرد على اليوم، بأن هذا مثل يضرب لا حقيقة تشهد .

وذلك هو إعجاز التعبير ، الذى تتقارب فى إدراكه شتى المدارك ، ويصل كل منها إلى صورة حية مع اختلاف الأفهام !

٣ — ويريد أن يرسم نموذجا إنسانيا للمكابر المعاند فى كل زمان ومكان . فإذا هو يرسمه فى يسر وسرعة ودقة على هذا المنوال :

« ولو فتحنا عليهم بابا من السماء ، فظلوا فيه يعرجون . لقالوا : إنما سُكِّرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » !

أو :

« ولو نزّلنا عليك كتابا فى قرطاس ، فلمسوه بأيديهم . لقال الذين كفروا : إنْ هذا إلا سحر مبين » !

فيبرز من خلال هاتين الصورتين ، نموذج إنسانى معهود . لهؤلاء الذين يلجون فى المكابرة على الرغم من كل برهان. ولكن القرآن لا يقول كهذا الذى تقول : يلجون فى المكابرة على الرغم من كل برهان ـ إنه ليرسم لهم صورة شاخصة أوضح من كل تعبير ، لأنها تلمس الحس والضمير .

٤ — ثم ها هو ذا يصور حادثا وقع : مشهداً من مشاهد الهزيمة . فيرسم المشهد كاملاً تبرز فيه الحركات الظاهرة ، والانفعالات المضمرة ، وتلتقى فيه الصورة الحسية بالصورة النفسية ، كأنما يُمثَّل الحادث من جديد ، ويقع مرة أخرى كما وقع فى المرة الأولى ، دون أن يُغفل منه قليل ولا كثير :

« يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود ، فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتُلِى المؤمنون وزُلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون ، والذين فى قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم : يا أهل يثرب لا مُقام لكم ، فارجعوا . ويستأذن فريق منهم النبىّ يقولون : إن بيوتنا عورة ـ وما هى بعورة ـ إن يريدون إلا فرارا » .

فأية حركة نفسية أو حسية من حركات الهزيمة ؛ وأية سمة من سمات الموقف الكثيرة ، لم يسجلها هذا الشريط الدقيق المتحرك المساوق لحركة الموقف الأصيل ؟

٥ — وهذا مشهد واحد من مشاهد القصص الكثيرة ، مشهد في قصة الطوفان :

« وهي تجري بهم في موج كالجبال » وفي هذه اللحظة تتنبه في نوح عاطفة الأبوة . فإن هناك ابناً له لم يؤمن ، وإنه ليعلم أنه مغرق مع المغرقين . ولكن ها هو ذا الموج يطغى ، فيتغلب « الانسان » في نفس نوح على « النبي » ويروح في لهفة وضراعة ينادي ابنه :

« ونادى نوح ابنه ـ وكان في معزل ـ يا بني اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين » .

ولكن البُنوّة العاقة لا تحفل هذه العاطفة ، والفتوة المغرورة تعتمد على القوة الشخصية .

(قال : سآوي إلى جبل يعصمني من الماء . قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) .

وفي لحظة تتغير صفحة المشهد في تعبير خاطف ، يصور الموجة العاتية تطغى على كل شيء : (وحال بينهما الموج . فكان من المغرقين) .

إن السامع ليمسك أنفاسه في هذه اللحظات القصار : «وهي تجري بهم في موج كالجبال» ونوح الوالد الملهوف ، يبعث بالنداء تلو النداء ، وابنه الفتى المغرور ، يأبى اجابة الدعاء ، والموجة العاتية تحسم الموقف في لحظة ؛ فكان من المغرقين » .

وإن الهول هنا ليقاس بمداه في النفس الحية — بين الوالد والمولود كما يقاس بمداه في الطبيعة ، حيث يطغى الطوفان ، على الذرى والوديان وإنهما لمقياسان متكافئان !

٦ — والآن فإلى مشهد من مشاهد القيامة :

« يوم يدع الداع إلى شيء نُكُر . خُشَّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مُهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر » .

فهذا مشهد من مشاهد الحشر مختصر سريع ، ولكنه شاخص متحرك ، مكتمل السمات والحركات : هذه جموع خارجة من الأجداث في لحظة واحدة كأنها جراد منتشر — ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصور هذا المشهد العجيب — وهذه الجموع ، تسرع في سيرها نحو الداعي ، دون أن تعرف لمَ يدعوها ، فهو يدعوها إلى « شيء نكر » لا تدريه « خشعاً أبصارهم » وهذا يكمل الصورة ويعطيها السمة الأخيرة . وفي وسط هذا التجمع والإسراع والخشوع «يقول الكافرون : هذا يوم عسر» .

فماذا بقي من المشهد لم يشخص بعد هذه العبارات القصار ؟

٧ — فإذا طرق القرآن موضوع الجدل حول إحياء الموتى مثلا ، صاغه في قالب التصوير المؤثر ، ولمس به الحس والوجدان ، فيما ترى العين وفيما يستشعر الضمير :

« الله الذي يرسل الرياح ، فتثير سحابا ، فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كِسَفاً ، فترى الودق يخرج من خلاله ؛ فإذا أصاب به من يشاء من عباده ، إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمُبْلِسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها . إن ذلك لمحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير » .

هكذا مشهداً بعد مشهد: إرسال الرياح . إثارة السحاب . بسطه في السماء . جعله متراكما . خروج المطر من خلاله. نزول المطر ، استبشار من يصيبهم بعد يأسهم . إحياء الأرض بعد موتها ... لينتقل من هذه المشاهد المتتابعة بعد استعراضها للعين والخيال ، وبعد تركها تؤثر في النفس على مهل إلى : « إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير » في أنسب اللحظات النفسية بهذا التقرير

* * *

هذه نماذج قليلة لطريقة القرآن العامة في التعبير عن جميع الأغراض ، سواء كان الغرض تبشيراً أو تحذيراً . قصة وقعت أو حادثاً سيقع . منطقاً للاقناع . أو دعوة للايمان . وصفاً للحياة الدنيا أو للحياة الأخرى . تمثيلا لمحسوس أو ملموس . إبرازاً لظاهر أو لمضمر . بياناً لخاطر في الضمير أو لمشهد منظور .

هذه الطريقة الموحدة . هذه القاعدة الكبيرة . هي : « التصوير » في أرقى آفاق التصوير .

سيد قطب